د. حسامد الخطيب

من شعر الرثاء في وقعة صفين

قراءة تحليلية

بسم الله الرحمن الرحيم

من شعر الرثاء فى وقعة صفين

قراءة تحليلية

— ١ —

مدخل :

هذه قراءة فى بعض نصوص من الشعر ، قيلت فى وقعة لها صداها فى التاريخ الاسلامى « صفين » تلك الواقعة التى أتت نتيجة حتمية لصراع طال مداه ، وامتدت فى ربوع العالم الاسلامى خطاه .

سنحاول الكشف عن زمان الوقعة ومكانها ، وذلك استنادا الى ما ذكره أهل العلم من الأقوال والآراء ، ثم نحاول القاء ضوء من وحى الحدث ومن وحى البيان العربى الذى نسجت من خيوطه الفصيحة قمم شتى من الأشعار ، تختلف فى الغرض ، وتختلف فى استعمال الحروف وحياكة القول على مقدار كل متكلم وكل قول حسب منحة الله .

ولعله من المعلوم أن الشعر الذى قيل فى هذه المحنة كثير كثرة مناسباته وأيامه ، لذا سنجعل النظر فى نص أو نصين .

والله من وراء القصد ، وبه وحده التوفيق ،،

— ٢ —

صفين : الزمان والمكان :

« ما بين أعالى العراق وبلاد الشام تقع صفين ، تلك البلدة التى خلدها التاريخ ، وخلدت هى تاريخها ظاهرا فى حياة الأمة العربية والخلافة الاسلامية ، وألوان المذاهب الدينية والسياسية التى ولدتها حرب صفين • ونشرت أطيافها فى ربوع الدولة الاسلامية ، تلك الحرب التى استنفدت من تاريخ الدم المهراق مائة يوم وعشرة أيام ، بلغت فيها الوقائع تسعين وقعة فيما يذكر المؤرخون (١) •

لقد كانت حرب صفين شؤما وضروسا ، كادت تذهب بريح المسلمين ، أولئك الذين ما كادوا ينزلون عن خيل وقعة الجمل سنة ست وثلاثين هجرية حتى اعتلوها ثانية فى حرب صفين لخمس مضين من شوال من تلك السنة (٢) ، واذ سئل عمر بن عبد العزيز عن هذه الحرب قال :

« تلك دماء كف الله يدى عنها فلا أحب أن أغمس لسانى فيها » (٣) •

---

١ ـ معجم البلدان لياقوت الحموى « مادة صفين » .

٢ ـ وقعة صفين لنصر بن مزاحم المنقرى المتوفى سنة ٢١٢ هـ ط. الخانجى ـ ثالثة ـ ١٩٨١/١٤٠١ ، ت : الأستاذ عبد السلام هارون « المقدمة » .

٣ ـ البيان والتبيين للجاحظ ٢٨٩/٢ ط ٤ الخانجى ١٣٩٥ ـ ١٩٧٥ ، ت : الأستاذ عبد السلام هارون .

لقد عنى علماء التاريخ بتسجيل هذه الوقعة ، ومن أقدم من ألف فى ذلك أبو مخنف لوط بن يحيى بن سعيد الأزدى المتوفى سنة ١٧٠ هجرية •

ثم أبو الفضل نصر بن مزاحم (٤) المتوفى سنة ٢١٢ هـ قال ابن النديم : أبو الفضل من طبقة أبى مخنف ، وقد عاصر ابن مزاحم مؤرخ آخر ألف فى وقعة صفين ، وهو عبد الله ابن محمد بن عمر الواقدى المولود سنة ١٣٠ هجرية والمتوفى سنة ٢٠٧ هجرية ، وقد كتب فى تاريخ صفين أبو جعفر بن محمد ابن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هجرية وهو لم يفرد لها تأليفا خاصا ، وانما ذكر الواقعة فى أثناء تأريخه لحوادث سنة ٣٣ ، ٣٧ هجرية (٥) • تلك نبذة نقدم بها ، ولكن قصدنا الأول أن ننظر فى نص أو أكثر من نصوص شعر الرثاء الذى نسج فى قتلى هذه الوقعة ، وهو نظر يتجه

---

٤ ــ مؤلف الكتاب الذى نتحدث عنه ونأخذ منه النصوص ، وهو أبو الفضل نصر بن مزاحم بن سيار المنقرى ، ونسبته الى بنى منقر بن عبيد بن الحارث بن عمرو ... بن تميم ، مؤرخ عربى ، شيعى يغلو فى مذهبه ، كوفى النشأة ، ولكنه سكن بغداد وحدث بها عن سفيان الثورى وشعبة بن حجاج وغيرهما ، وروى عنه ابنه الحسين ونوح بن حبيب القمى وابو الصلت الهروى وغيرهم . تاريخ بغداد ٢٨٢/١٣ ــ ٢٨٣ ، ط. السعادة ١٣٤٩ هـ ؛ وانظر المعارف لابن قتيبة فى مواطن عديدة ، ط. المعارف ١٩٨١ ، ت : الدكتور ثروت عكاشة .

٥ ــ ١ ، ٢ من مقدمة الطبعة الأولى لمحقق كتاب « وقعة صفين » وانظر من تاريخ الطبرى ٢٣٥/٥ ــ ٢٤٤ ؛ ٢/٦ ــ ٤٠ ، ط. المعارف والفهرست ص ١٣٧ ، ط. دار المعرفة ــ بيروت ١٣٩٨/١٩٧٨ .

الى الخيـــال الشعرى ، والى صـــدق العاطفة وما يدور حولهما من فنـــون القـــول الذى يتصرف فيـــه الفصحاء .

— ٣ —

ومـمـــا يجدر التنبـــه لـــه أن قصائد الرثـــاء المتناثرة فى كتاب « وقعـــة صفين »قـــد قيـــلت فى مواطن عـــدة ، وقـــد عـــلم أن الوقـــائع بلغت تسعين وقعـــة على مـــدى مائـــة يـــوم وعشـــرة أيـــام (٦) ، ولكى نزيـــد وكـــدنا تحقيقا سنعرض لبعض ما قيـــل فى قتلى صفين لا فى غيرها ، وأول ما يطالعنا من تلك القصائد ما قاله نهشـــل (٧) بن حمـــرى التميمى فى رثـــاء أخيـــه مالك . وقد نادى قـــومه بالأحساب قبـــل قتـــله لعلهم يثبتـــون ، وحين قيـــل لـــه انـــه نـــداء الجاهلية ، قـــال : فالفـــرار — ويلكم — أقبـــح ، ان لـــم تقاتلوا عن الدين واليقين فقاتلوا عن الأحساب (٨) ، وأقبـــل يقـــاتل حتى قتـــل ، فقـــال نهشـــل :

---

٦ — انظـــر ص ١ من البحث .

٧ — هـــو نهشل بن حـــرى ، بفتـــح وتشديد الـــراء المكسورة ، بن ضـــمرة بن جـــابر بن قطن بن نهشـــل بن دارم بن مالك ... بن زيد منـــاة بن تميـــم ، من الشعراء المخضرمين ، حســـن الشعر ، شـــريف مشهور ، بقى الى ايـــام معـــاوية ، وكان مع على فى حـــروبه ، ولـــه ترجمة مفصلة فى ١/٢٨٤ ، ٢٨٥ من خزانة الأدب للبغدادى ، ط. السلفية ســـنة ١٣٤٧ هـ .

٨ — وقعـــة صفين ص ٢١٤ بتصـــرف .

تطاول هذا الليل ، ما كـاد ينجلى
كليـل التمـام (٩) ما يريد انصـراما

غبـت لذكـرى مـالك بكـآبة
أؤرق من بعـد العشـاء نيـاما

أبى جزعى فى مالك غـير ذكـره
فـلا تعذلينى أن جـزعت أمامـا

سأبكى أخى مادام صوت حمـامة
يؤرق من وادى البطـاح حمـاما

أبعث أنواحـا عليـه بسـحرة
تذرف عيناى الدموع سجاما (١٠)

وأدعو سـراة الحى بيكون مالكا
وأبعث نوحـا يلتدمن قيامـا (١١)

يقلن شـوى رب السماحة والندى
وذو عـزة يأبى بهـا أن يضـاما

وفـارس خيـل لا تساير خيـله
اذا اضطرمت نـار العدو ضراما

---

٩ ـ ليـل التمـام ـ بتشديد التـاء المثنـاة المكسورة ـ اطـول ليـالى الشـتاء .

١٠ـ الأنواح جمـع نـوح ، بالفتـح : النسـوة النائحـات . والسـحرة ، بضـم السين : السـحر ، أو هـو ثلث الليـل الآخـر الى طلوع الفجـر . وسـجم الدمـع : سـال قليـلا أو كثـيرا .

١١ـ سـراة الحى : اشرافه وسادته . والنوح : جمع النائحة . والتدم : اللطـم ، ويلتدمن ، اى يلطمن .

وأحيـــا عن الفحشاء من ذات كلة

يرى ما يهاب الصالحون حراما (١٢)

وأجـــرأ من ليث بخفـــان مخـــدر

وأمضى اذا رام الرجال صداما (١٣)

فـــلا ترجون ذا امـــة بعد مـــالك

ولا جـــازرا للمنشآت غلامـــا (١٤)

وقل لهم لايرحلوا الأدم (١٥) بعده

ولا يرفعوا نحو الجياد لجاما (١٦)

لقـــد تكلم النقـــد والنقـــاد قديما وحديثـــا عن وحدة القصيدة وكيف تبنى ، أو عن وحـــدة البيت بصفته دفقـــا شعوريا مستقلا ، أو عن وحـــدة المقطـــع كذلك ، الى آخـــر ما ورد من آراء (١٧) .

١٢ــ الكلـــة ، بكسر الكاف وفتح اللام المشددة : الستر الرقيق .

١٣ــ خفـــان : مأســـدة قـــرب الكوفة ، والمخـــدر : المستتر فى اجمتـــه أو المقيـــم .

١٤ــ الامـــة ، بكسر الهمـــزة وضمها : الشرعة والدين والنعمة . والمنشئات بكسر الشين : النـــوق اللواقح ، انشأت الغـــاقة مهى مدشىء : لقحت . والغـــلام : الطـــار الشـــارب ، أى الذى نبت شـــاربه .

١٥ــ الأدم ، بضـــم الهمـــزة ، جمـــع آدم وأدمـــاء : الابل الخالصة البيـــاض . ورحـــل البعـــير ، كمنـــع : حـــط على الرحـــل .

١٦ــ وقعـــة صفين ص ٢٦٥ ، ٢٦٦ .

١٧ــ تفصـــيل ذلك فى :

(أ) الشـــعر والشعراء . لابن قتيبـــة ، ت : الأستاذ احمـــد محمـــد شـــاكر ، ط. المعارف بمصـــر ســـنة ١٩٦٦ .

(ب) عيـــار الشـــعر ــ لابن طباطبا العـــلوى ــ ت : الأستاذين

ولست أشك فى أن النظر المنصف المتأنى فى هذا النص وأمثاله يحكم له بالتلاحم والتسلسل والترتيب • فهذا الليل المتطاول الذى لا يبغى انجلاء علله بتذكره أخاه مالكا ، والكآبة الملازمة وتاريقه النيام بعد الهجوع قد أحدثه اباء جزعه أن يتذكر شيئا سوى مالك فهو مدفوع دفعا الى حالته تلك ، واذن فلا دكان اللوم لائم ، وقد رتب على ذلك منطقيا استمرار بكائه ، بل زاد وعلق ذلك الاستمرار على ما لن ينقطع مادامت هنالك حياة ، وصوت حمام يأرق له حمام ، ولأن مالكا ملك عليه وجدانه ، ومكانته كانت وكانت ، أستقل الشاعر بكاءه ، منفردا فهيج من حوله وأضاف الى ساحة بكائه النساء . والظاهر أن النساء هنا هن الآل ، فليدع الشاعر أسرياء الحى ووجوهه للبكاء . وليدع أخريات نادبات قائمات ، ونوح النساء والتدامهن قد يصحبه حداء ، وحداؤهن ليس سوى قص مكارم ملك عليه وجدانه ، ومكانته كانت وكانت ، أستقل الشاعر بكاءه ، كما حكاها هو عن لسانهن وهذه الخصال العظام التى ذهبت بذهاب مالك رتب عليها قطع الرجاء فى ذى فضل بعده ، والنهى عن الركوب والترحال لأى من الأمور أو الاحوال •

تلك معالم اللوحة كما رسمها الشاعر فى مساحة واطار

طه الحاجرى ومحمد زغلول سلام ، ط. التجارية سنة ١٩٥٦ .

(جـ) النقد الادبى الحديث « وهو عمدة فى ذلك » د. محمد غنيمى هلال ، ط. الانجلو سنة ١٩٦٤ ثم غير هذه .

محددين ، لا ينبو فيهـا بيت ولا يشـذ لفظ ، ومع هـذا فللمتمحل والمتنقص أن يقول ما يشـاء ، وباب الكذب والتهجم دائما مفتوح .

لقـد بـدأ الشاعر بمـا يحقق قصـده ، ويقـدم واقعـة « تطـاول » فامتداد الصـوت وانطلاقه يشعران بتطاول الزمن (١٨) وبـطء سـيره ، وكـأن الشاعر قـد استشعر في قوله « تطـاول » طـولا غـير متنـاه مخفف من الوقـع بقـوله « ما كـاد » وكم هي مذهبـة لاغراق المبالغة او مسـوغة لقبولها ، ومثـل ذلك كثير في القـرآن العظيم وفي اساليب العـرب الفصحاء ، فمن القـرآن الكريم ، دون حصـر قـوله تعـالى . « ... اذا اخـرج يـده لـم يكـد يراهـا » (١٩) وقوله ــ تباركت أسماؤه ــ : « ... يكاد سـنا برقـه يذهب بالأبصـار » (١٩) .

ومن الشعر قـول أوس بن حجـر في وصف السحاب الكثيف ودنـوه من الأرض :

دان مسف ، فويق الأرض هيـدبه
يكاد يلمسه من قام بالـراح (٢٠)

ومجيء « ينجـلي » بعـد « ما كـاد » مشـعرة بمقـدار المعـاناة ، وتكاثف الهـم ، واطبـاق الليـل المدلهم ، ولكي يميز

١٨ــ د. محمد ابو موسى ــ قـراءة في الأدب القـديم ص ٣٣ طبعـة أولى سـنة ١٩٧٨ ، د. عبد الله ربيـع و د. عبد العزيز عـلام عـلم الصوتيات ص ١٢٤ ، ص ١٣٥ ، طبـع التوفيقية سـنة ١٩٧٧ .
١٩ــ سورة النـور الآيتـان : ٤٠ ، ٤٣ .
٢٠ــ معـالم النقـد الأدبي ، د. عبد الرحمن عثمـان ٨٦/١ . ط. دار النشـر للجامعات المصرية سـنة ١٩٦٨ .

الشـــاعر ليـــله أكمـــل تمييز ، ولكى يجعـــله مـــاثلا حاضـــرا فى الأذهـــان كنهـــا أوضح حضـــور ، قريبا منهـــا ومنـــه ، أتى باسم الاشـــارة (٢١) المشـــير الى قصـــده ، المعين لمـــراده فقال « هـــذا الليـــل » ثم كـــأنه قـــد جعله بهـــذا ليـــلا خاصـــا ، لا يميـــزه ولا يدرى كنهـــه ســـواه • فـــاذا فـــرغ من ذلك التوضيح المركز أتى بتشبيه يدل على ازديـــاد كـــآبة ليـــله وكآبته هـــو فى « كليل التمـــام » ومعلوم أنـــه أطـــول ليالى الشتاء ، وليـــل الشتاء فيـــه ما فيـــه من الزمهرير ، فمـــا بالنـــا اذا ما كان ليـــل الشـــتاء فى صـــحراء ! ، وفى « تطاول هـــذا الليـــل » وفى « ما يريد انصراما » بعـــث للحيـــاة فى غـــير الأحيـــاء ، وبث للارادة الفاعلة فى غـــير الفـــاعل وغير المريد ، ومن بعـــد ذلك فالبيت يبدى انفعالا وتوترا ، ويظهـــر فى الشاعر ضيقا بليـــله هـــذا وما فيـــه تباريح الأحزان •

ولعـــله من المألوف المعروف أن الهمـــوم تتجمع وتتكالب فى الليـــل ، وليل المغموم المهموم أبـــدا لا تتحرك نجومه ـــ فى نظره ـــ ولتلك المعـــانى المتزاحمة والمـــاثلة تجـــاه الشاعر بات ليله الطويل بصحبة الكآبة ، تبعثهـــا فيـــه ذكـــرى مالك التى لا تكاد تنقضى ، وهـــذه الذكرى ليســـت فى مصرعه أمـــام ناظريه ثـــم ما اكتنف ذلك من الطعـــان وانســـلال الروح ، وانمـــا هى ذكـــرى حيـــاة طويلة ، وصحبة وأخـــوة ، كـــل ذلك يمـــر على نهشل فى ليله التطاول بلا انجـــلاء ، وكأنى بالشاعر قـــد ضـــاق بتزاحم هموم الذكرى ، وآلام الكآبة ، نـــأرق بأنينـــه وتوجعه النيـــام ، علهـــم يشاركونه شـــيئا ممـــا يقاسيه ، أو يخففون بعضـــا ممـــا يلاقيه •

٢١ـ شـــرح عقـــود الجمـــان للسيوطى ، ط. مصطفى الحـــلبى ١٣٥٨ هـ ، ١٩٣٩ م .

ونحن واجدون فى تنكير الكآبة أنها ليست كآبة مما يعهده الناس ، بل هى نوع فريد غريب مخالف لكل المعروف المعهود ، وواجدون كذلك فى تنكير النيام المؤرقين الكثرة الشاملة والتنبيه لكل من هجع فصحا وتنبه بعد طول أرق مما سمع من زفير ذلك الحزين المكلوم المفئود .

وفى قوله : « من بعد العشاء » تحديد دقيق لبداية تراحم الهموم ، فالعشاء هو أول ظلام الليل ، وبحلوله يحل البين والويل .

على أن الشاعر يبدو غير قادر على كبح جماح معاناته ، فهو فى حرب مع ذلك الجزع الذى اكتنفه ولا يريد أن يستجيب لتوسلاته ، أو أن يترك لفكره شيئا ينشغل به الا تذكر مالك « أبى جزعى » وهذا الجزع مع عنفه وقوته قد انحصر « فى مالك » وذلك كله قد سوغ له أن ينهى كل من يعذله ويلومه ألا يلوم وألا يعذل « فلا تعذلينى أن جزعت أماما » وبخاصة بعد أن تكشفت أسرار المعاناة وقسوة الحياة .

ومن هنا بدأ انطلاقه فى البكاء الذى ما يكاد ينقضى ، اذ السين مع المضارع فتحا بابا لا ينغلق « سأبكى » أبدا ، ومما يزيد توكيد ذلك العزم تعليقه على ما يشبه المستحيل فى انقطاعه « مادام صوت حمامة يؤرق من وادى البطاح (٢٢)

٢٢ـ وادى البطاح ـ هو ما بين اخشبى مكة ، وقد كانت قريش تنزل به ، فسمى « قريش البطاح » .

حمـاما » وصوت الحمـام مع وقتـه وجمـال غنته فيـه نغمـة ألـم وحـزن كظيم ، يبعث الأسى ، ويزيح التـأسى ، ومن ثم كانت العـرب تتمثل بصوته فى مثـل تلك الحـال ، ولأن صوت الحمـامة الواحدة يستجيب لـه غيرهـا من الحمـام فـان الشاعر لكذلك ، يأرق ويؤرق النيـام ، كفعل ما فى وادى البطـاح من الحمـام .

وحيث ان نهشـلا قـد أبى عليـه جـزعه أن يكون الا كمـا ذكـر وعرفنـا ، فـانه هـو ـ على مابيـدو ـ قـد أبى أن يقصد الحـزن والبكاء على نفسـه فمضى يدعـو النائحات ويبعثهن من نومهن فى السـحر حيث لـم يعـرف هـو النـوم ولـم ينقطـع لـه دمـع ، واكثـار الشـاعر من الأفعـال المضارعة « سأبكى ، يؤرق ، وأبعث ، وتذرف ، وأدعـو ، الى آخـر ما أورد » هـذا التعبير بالفعـل المضارع يوحى بأن كـل حـدث من تلك الأحداث ليس وليـد وقتـه ثم ينتهى ، انمـا هـو يتجـدد المـرة بعـد المـرة ، أو قـل : انـه يتجـدد ويقـوى كلمـا خطرت ذكـرى مالك ، ومفهـوم أن هـذه الذكرى تلازم الشـاعر ولا تبرحه ، ولو أنـه بـدأ تعبيره بمـاض لمـا استطاع أن يمضى فى تكوين عناصر الصـورة التى أخرجها ، ولاضطر لأن يقطـع حديثة بعبارة واحدة .

على أن دعـوة الشـاعر لـ « سـراة الحى » كى يبـكوا مالكا دالـة فى جـلاء على مكانة ذلك القتيـل فمن ذا الذى يبكيـه الكبـار والسـادة اذا نـم يكن ذا مكانة وصاحب زعـامة فى قومه وسـيادة .

والشـــاعر أبـــدا يبتغى أن يشعرنا بوجـــده وبحرقة فـــؤاده وذلك عن طـــريق ما يســـوق من كلمات موحية بقصده وبمـــا يعتمل فى داخـــله ، يبـــدو ذلك فى أن يبعث النســـاء بعثـــا ، وأن يدمن النـــدب واللطـــم من حـــالة نشـــاط وقيـــام ، ومضمون ذلك كلـــه هـــو ما يستأهله مالك ويستحقه وكـــأنه استشعر ســـائلا يقـــول : لـــم كـــل ذلك الاهتمام والبعث وحشـــد الباكين والباكيات ؟ فأجاب بمـــآثر مالك ، وجعـــل ماثـــره تلك قصـــة حداء ترددها النائحات ، وفى ذلك الحـــداء وقص المكارم ما فيـــه من التهـــاب المشـــاعر ، وتمثـــل أعمـــال ذلك القتيـــل وفضائله على مـــدى عمـــره القصير أو الطـــويل •

وحـــداء النـــوح أن يقلن : ثـــوى رب السماحة والنـــدى ، لقـــد هلك رب السماحة ورب النـــدى ، و « الرب » تتحمـــل من المعـــانى حفظ النعمـــة وانمائهـــا ، وتوحى بحفظ الأشياء وتقويتها ويلـــزم المذكـــور بعدها ونفى مبارحته « السماحة والندى » وفى كلمـــة السماحة ما فيهـــا من معنى اليســـر والسهولة والبســـاطة والليـــونة ، وفيهـــا كـــذلك معنى البـــذل والاعطـــاء فى العســـر واليســـر ، وذلك فى مالك ســـجية وليس تكلفـــا ••• ، وقريب منـــه معنى « النـــدى » أمـــا العـــزة فانهـــا تتضمن من المعـــانى القـــوة والغلبـــة ، وتظهـــر مـــدى الحمية والأنفـــة ، مع صـــون الزهـــار وسرعة الاستجابة للصريخ ، ومن ذا الذى تتجمع لديـــه تلك الصفات ثـــم لا يأبى أن يضـــام ؟•

وهـــذه التى وصـــف الشاعر بهـــا مالكا هى صفاته وقت السلم

— على ما يظهر — أمـا ما ينتصف بـه اذا جـد الجـد ، واشتدت سـوق(٢٣) الحـرب فهـو « فارس خيـل » يحكم أمرها ويحذق ركوبهـا وينـدر نظراؤه الذين يجيدون الطعـان فـوق ظهورها إجـادته ، وما ذلك الا لأنهـا « خيـل لا تساير » ولا تجارى ، فكأنها صـنف من الخيول متفـرد بمميزات ، والذى أفهـم أن تلك من صفات مالك فى الحروب قول الشاعر على التحقيق « اذا اضطرمت نـار العـدو ضـراما » .

ان اضطرام النـار شـدة اتقادها وعظـم أوارهـا وانـه با ضـافة العـدو الى النـار قـد أخرجها — أى النـار — من الحقيقة الى الخيـال التصويرى ، فالعـداوة والأحقـاد والأضغان كلمـا انطـوت عليهـا قلوب سـود ، واحتضنتها أنفس خبـث ، كانت عواقبها تدميرا واتقـاد نـيران ، انهـا نـار العـداوة ، وقـد كان مالك لهـا ولمثلها بالمرصاد ، فلتنطلق بعده كمـا تشـاء .

ولقـد يظن ظـان أن من يتصف بهـذه الصفات يتجـرأ على المحـارم كتجرئه على المـكاره ، ومن ثم يحـرز الشاعر ويحترس ، وينفى عن كـل ذهـن مثـل تلك الظنون اذ يقـول : « وأحيـا عن الفحشاء من ذات كلـة ... » ان الفاحشة كـل ما جـاوز الحـد من قول أو فعـل ، وذات الكلة هى ذات الستر المتصونة المحتشمة ، ومن الصفات المـألوفة المعروفة فى النسـاء الحيـاء ، ذلك فى شكله الأعـم ، فمـا بالنـا اذا كـان ذلك فى الحـرائر ، وما بالنـا اذا

---

٢٣ — جمـع سـاق .

كان الحيـــاء فى مالك أقـــوى وأشـــد ممـــا فيهن ؟ مع أن ما فيـــه من شجاعة وفروسية ، وجـــراءة ومضاء ••• ، هـــذه تجعله مرغوبا فيـــه دائمـــا ، محبوبا أبـــدا ، ولكن من رزق الله تلك النعـــم ، وأضفى عليه — تعالى — من ثيابهـــا وأســـبغ رزقـــه أيضـــا الصون والعفـــاف والحيـــاء .

لقـــد قـــالوا : « ان حسنات الأبرار سيئات المقربين » ورقيب من ذلك المعنى قـــول نهشل : « يـــرى ما يهاب الصالحون حراما » .

اذا لهيبـــة الاجـــلال والتخوف ، ومعنى هـــذا أن النفس تجد فى داخلهـــا تـــردد نحـــو الاقـــدام على ذلك المهيب ، ولكن المحرم الذى يمتنـــع فعـــله بـــدءا ، فهنـــاك اذا فـــارق دقيق بين ما يهاب وما يحـــرم ، وأظنـــه لا يدق ، ولا يصعب على الذوق السليم ، وبخاصـــة اذا كـــان ذوقـــا عربيا سليما .

وفى زعمى أن البيت العـــاشر « وأجـــرأ من ليث ••• » أشـــد التصاقا بالبيت الثـــامن « وفـــارس خيـــل لا تســـاير ••• » لأن الشـــاعر بصـــدد تسجيل صـــفات مالك القـــوية ، ولكن يغفر لـــه أن الدفق الشعورى فى شعرنا العـــربى قـــد يكون بيتـــا فى بعض الأحيـــان أو فى غالبهـــا ، وعلى ذلك كـــان التضمين عندهم من المعيب وهـــو أن تتعلق قافيـــة البيت بمـــا بعـــده على وجـــه لا يستقل بالافـــادة (٢٤) .

---

٢٤ — المعجـم الوســيط — ضـــمن — وانظـــر ص ١٥٥ من كتاب العـــروض ، د. محمـــد الكاشف وزميليه ، ط. الخانجى ١٤٠٦ هـ — ١٩٨٥ م .

لقد قلنا : ان نهشلا يصف مالكا بما يكون عليه حال السلم — فى ظننا — واذ فرغ من تسجيل تلك السمات أو بعضها ، شرع ينوه بما يتصف به وقت الحرب .

« وأجرأ من ليث ... » ان الجراءة تعنى الاقدام ، وأن الليث هو القوة ، وهو الشدة أيضا ، هكذا تقول العرب (٢٥) . واذ لمست فى الأسد ما يدل على المعنى الأصلى ، شبهت به أقوياءها وأسداءها وكل مغامر وفارس مغوار .

وشاعرنا قد رأى فى أخيه ماهو أقوى وأظهر مما فى الليث ففضله عليه ، وظاهر أن التشبيه لا يفى بما يفى به التفضيل ، فقوله « أجرأ من ليث » ليس كما لو قال : هو كالليث .

ولا غرو من أن يتخير الشاعر أسده الذى يفضل عليه من مأسدة « خفان » أليس هو ابن البيئة الخبير بخباياها ، العليم بمعالمها ومواطن ضعفها وأماكن قواها ؟! ، إذن فليتخير بمآثر مالك ، وجعل مآثره تلك قصة حداء ترددها النائحات ، أسده من مكان تكثر أسوده ، وتعرف بما لم يعرف به غيرها من الصلابة والقوة والافتتان فى ضروب القتال ، وقد وصف الشاعر ليث خفان « بالمخدر » ليزيد مالكا قوة على قوة فى وصفه بالشجاعة ، فالليث المخدر هو المقيم الملازم لعرينه ، وحيث انه كذلك فليس من مكان فى حماه لدخيل ، بل لن يحوم حول ذلك الحمى أى مغامر مغرور ، وكذلك كان شأن مالك ، ألا يجدر بالرثاء والبكاء !

---

٢٥ — لسان العرب ، والمعجم الوسيط — ليث .

وفى اسم التفضيل الثانى « وأمضى » يرغمنا على التوقف لنفكر ، ونسرح الخيال وراء قصده ومراده ، أمضى من ماذا ؟ انه أمضى من عزمة الليث ، وهذا وارد ولا يعترض معترض عليه ، انه أمضى من همة الفرسان الذين لا يهابون الأقران ، أو هو أمضى ضربة وفصما وحسما من الحسام ، قل ما شئت فان المفضل عليه متروك للذوق كى يضع من الأمور العظام ما يتكافأ مع همة ذلك الفارس القتيل .

أما « اذا » فقد أخذت مكانها لتدل على معنى جميل ، فالصدام فى حياة مالك دائما واقع أو متوقع ، وليس فى ذلك شىء من الخيال ، و « رام » بعد « اذا » تزيد المعانى قوة وحلاوة ، فالعدو هو الذى قصد وصمد الى الصدام ، ومالك هو الذى تصدى ، وكان للعدو بالمرصاد .

أما وقد هلك وذهب فليس بعده من أمل ولا رجاء فى ذى همة ولا فى ذى نعمة « فلا ترجون ذا امة بعد مالك » فقد كان فتى فيه فتوة ، وأظهر ما تكون فتوته فيما يحمد ويؤثر ، لا على فتوة الصعاليك ، فزيادة على ما عرفت فيه من لمكارم التى ذكرت ، والمروءات التى سلفت ، كان اذا جد الجد ، بأن نزل ضيف ، أو ضاقت بالأهل أو الناس الضوائق ، سارع فنحر وأطعم وكفى ، حتى وان يكن النحر للنوق اللواقح التى يرجى وينتظر منها النتاج القريب ، لذا كان من الحق والصدق أن يقول الشاعر : « ولا ترجون من بعده علاما جازرا للمنشئات » .

هـذا ، وليعطل السفر والأسفار ، ولتبـق تلك الابل العظيمة النـادرة خـلوا من أى رحـل يعتلى ظهورها ، فلقـد رحـل من كـان يستحقها ، وتتشرف بأن يرتحـل متسنما أسنمتها ، والشـأن كـذلك مع كـرام الجيـاد ، جيـاد الحـرب أو جيـاد الرحل ، فكـل ذلك قـد فقـد ما فيـه من معـان مليحـة بعـد مالك ، واذن :

فـلا ترجون ذا امـة بعـد مالك
ولا جـازرا للمنشـئات غـلاما

وقـل لهم لا يرحلوا الأدم بعـده
ولا يرغموا نحـو الجياد لجـاما

ذلك ما كـان من نهشل وتصويره ما فى دخلته ، وتعبـيره عن عواطفه وشـديد حرقتـه ، أسى على أخيـه ورحيله عن عالمـه .

— ٤ —

وقـد كان فى قتلى صفين أو شهدائها « عبيد الله بن عمـر ابن الخطـاب » رضى الله عنهما وفى قاتله يختلفون اختلافا ، وليس يعنينـا هنـا سـوى رثـاء كعب بن جعيـل لـه اذ يقـول :

ألا انمـا تبكى العيون لفـارس
بصفين أجلت(٢٦) خيله وهو واقف

٢٦ـ اجلت الخيـل : تفرقت . ومن كـلام العـرب : جـلا من الخـوف ، واجـلى من الجـدب .

تبـدل من أسـماء أسياف وائـل
وأى فـتى لـو أخطـأته المتـالف

تركـن عبيد الله بالقـاع مسلما
يمـج دمـاه (٢٧) والعروق نوازف

ينـوء وتغشـاه شـآبيب من دم
كمالاح فى جيب القميص الكفائف(٢٨)

دعاهن فاستمعن من أين صـوته
لدى الموت شهباء المناكب شارف (٢٩)

فما برحوا حتى رأى الله صبرهم
وحتى أتيحـت بالأكف المصـاحف

بمـرج ترى الرايات فيه كأنهـا
اذا اجتنحت للطعـن طـير عواكف

٢٧ـ يمـج دمـاه : يرمى بالدم من فمـه . يقولون : مـج الطعام من فيـه ، اى رمـاه .

٢٨ـ نـاء بحمله نـوءا : نهض مثقـلا ، او اثقـل بالحمل فسقط ، والمناسب هنـا النهوض بجهـد ومشقة . والشآبيب جمـع شؤبوب ، الدفقـة من المطـر ، والشـدة من كـل شيء . والكفائف : ما يعمـل على جيب القميص او الثـوب من الحـرير (ويعـرف بالقيطان ، وهـو نسـيج من الحـرير او القطن او غيرهما يبـرم فيكون كالحبل الرقيق . يعمـل حليـة على ذيـل او اكمـام او جيب القميص وغـيره من الثياب : وهـو بهـذا المعنى « قيطـان » دخيـل على العربية) ـ وسـيط ـ .

٢٩ـ شهباء المناكب : كتيبـة كثـيرة السلاح ، ظهرت مناكبها من كثـرة الدروع والسـلاح شهباء يغلب بياضها سوادها ، واظهـر معانى الشـارف ان الكتيبـة ضـمت كبـار اشـراف القـوم .

جزى الله قتلانا بصفين خير مـا
جـزاه عبادا غادرتها المواقف (٣٠)

ويطالعنا فى هذا المطلع « ألا » التى تنبـه الى أهمية ما سيأتى بعدهـا ، وهـذا الآتى الذى هـدف إليـه الشـاعر قـد صدره بـ « انمـا » لكى يشـير أو يؤكـد أن البكاء على أمثـال الشهيد « ابن عمـر » من المـألوف المأنوس ، القريب من النفـوس (٣١) .

وفى روعى أن « ألا » مردفـة بـ « انمـا » تفهـم معنى لـه جمـاله وجـلاله ، وهـو أن هنالك من لام الشـاعر على بكـائه المتوالى : وحـزنه المقيـم ، وهنالك من أراد التسوية بين هـذا الشهيد العظيـم وبين من سـواه ، أو أن هنـاك من يريد أن يجعل البكـاء والتفجـع على ابن عمـر لا يتميز عن البكـاء والحـزن على من عداه ، لمـح الشاعر ذلك أو تأكد منـه ، فقلب تلك المقولات بقـوله : « ألا انمـا تبكى العيون لفـارس » هـو ذلك القتيـل فقط ، واذا صـح قولنـا هـذا فـ « انمـا » قـد جيىء بهـا ردا على من اعتقـد نفى ما أثبت بهـا ، وواضـح أنـه بكـاء العيون ودوام مطـر الدموع ، وعلى ذلك يمكن أن يكـون للحصـر « بانمـا » أكثـر من موضـع وأكثـر من استعمال ، ولكل معنـاه الخـاص الذى تستخلصه نجـابة العقـول ، وتفهمـه من خـلال السـياق وفحـوى التركيب ، فأمـا ان جـاز قـول شىء فى هـذا

٣٠ـ أنظـر ص ٢٩٨ من وقعـة صفين لنصـر بن مزاحـم .
٣١ـ د. محمد أبو موسى ص ١٤٨ من دلالات التراكيب ـ طبعـة ثانيـة ـ وهبـة ١٤٠٨/١٩٨٧ .

عن الامام عبد القاهر . فليس أكثر — فى رأيى — من أنه لم يذكر كل ما يمكن أن تستعمل فيه « انما » أو ما يوحى به استعمالها (٣٢) ، وما أكثر مواضعه !

يقول شيخنا « محمود محمد شاكر » : والذى فعله عبد القاهر فى كتابه « دلائل الاعجاز » هو أول تحليل للغة من حيث هى تركيب يحتمل ألوفا من وجوه الأوضاع ، ودلالة هذه الأوضاع على المعانى المستورة التى يحملها كل تركيب ، ومزية كل تركيب فى اشتماله على وجوه « البيان » القائمة فى نفس المبين عنها »(٣٣) .

وهذا الحشد من الكلمات الدالة على معان متنوعة ، لافت وداع الى استغراب متسائل يقول : من ذلكم الجدير بهذا الاهتمام وتدبيج الكلام ؟ وعلى ذلك جاءت الاجابة واضحة وملجمة لكل لسان يشتهى التقول « ... بصفين أخلت خيله وهو واقف » وجلاء الخيل هنا وتفرقها يفهم منه تكاثر الخوف ، أو عدم التكافؤ بين القبيلتين المتصارعتين ، وكلتا الحالتين ، الخوف وعدم التكافؤ ، مدعاة لترك الصيال ، فان يحدث مثل ذاك ويبقى فارسا فريدا وحيدا فى مواجهة جمع

٣٢ـ د. محمد ابو موسى ، دراسة فى البلاغة والشعر ، ص ٨١ — وهبة ١٤١١/١٩٩١ ، دلالات التراكيب ص ١٣٨ ، ١٣٩ .

٣٣ـ د. محمد ابو موسى ، دراسة فى البلاغة والشعر ، ص ٨٣ نقلا عن « مداخل الى اعجاز القرآن » ص ١٢٠ ، ١٢١ ، للشيخ محمود محمد شاكر .

من الأعــداء الشانئين لــه دلالته وايحاءاته بمحمود الخصال التى لا تبــارى ولا تجــارى •

والذى لاريب فيــه أن الاقــدام والاحجــام مطلوبان ، وكل منهمــا لــه مكان ، بيــد أن الحــرب اذا قامت على أقدام ، وكشر عن أنيــابه المــوت انزؤام ، على حين اتقــد وطيسها اتقادا ، رأيت الفــارس وقــد استغرقه الطعــان ، وغشيته نشــوة الالتحام ، واتجــه بكله الى عــدوه غــير ناظــر الى من تفــرق وانهــزم ، ولا عــابىء بمن تشجع فصــمد •

واذا صــح ذلك فالفارس ابن عمــر لــه العــذر كل العــذر اذا أجلت خيــله وهــو واقف يجــالد وحــده ، ولــم يفــزع الى جنــده وأهــله الا حين تمكنت منــه طعنات عــدوه ، تلك الطعنات التى حات محــل أسماء زوجــه ، أخرجها معــه وأخــرى من حريمه لتــريا من هــو فى حمــأة القتــال (٣٤) « تبدل من أسماء أسياف وائــل » وهــذا مــوح بالنقمة بعــد النعمــة ، فبعــد أن كــان بين حريمــه وعطفهن ، ناشــته ســيوف وائــل فأتلفته وحــلت محلهــن •

ثم يتعجب الشاعر ويتحسر ، ويتمنى أن لــو بقى ذلك الشهيد ،

٣٤ــ ابن ابى الحــديد ، شــرح نهــج البــلاغة ٤٩٩/١ ، طبــع الحلبى ١٣٢٩ هـ ، ونلاحظ أن الشــاعر يصــرح بقاتلى ابن عمــر ، فلم الخــلاف حــول قاتليه ؟

وأن لـــو أخطـــأته الضربات التى أودت بحيـــاته ثم غادرته . اذن لكان لـــه شـــأن فـــوق شـــأنه ، وفتـــوة على فتـــوته (٣٥) .

تبـــدل من أسماء أســـياف وائـــل
وأى فـــتى لـــو أخطأته المتـــالف

ولـــو أنهـــا فتـــوة محدودة محصورة لمـــا ســـاغ التعجب ، لكنهـــا فتـــوة بلا حـــدود ، والفتى والفتـــوة من واد عـــربى واحد ، وهمـــا كلمتان محملتان عند العـــرب بعـــديد من المعـــانى ، منهـــا السخاء والنجـــدة والرجولة وكـــل ما يفهـــم منـــه محمود الخصال وكـــريم الفعـــال ، فـــلو علمت السيوف بتلك السمات لأبقت عليه ، ولكن أنى لهـــا العـــلم بمـــا عليـــه الرجـــل من فضائل الرجال !

وسيوف وائـــل التى أتلفت عبيد الله تركتـــه فـــوق الأرض لا يقـــوى على حـــراك الا بقـــدر جهـــد المثخن الذى يطـــرح الدم ويمجـــه من فيـــه .

تركن عبيد الله بالقـــاع مســـلما
يمـــج دمـــاء والعروق نـــوازف

وتلك الصـــورة التى رسمها الشـــاعر موحية بأن النزف كمـــا من عروقه التى أثخنتها الجـــراح كان كذلك يتدفق من فمـــه نتيجة الطعنـــات النافذات ، ولكأنى بهـــذا الفارس — على الرغـــم ممـــا

٣٥ـ انظـــر ص ١٠٨ من الأزهيـــة فى عـــلم الحروف للهـــروى ، طبـــع دمشـــق ١٣٩١/١٩٧١ .

يعانيه ـ كان يحاول النهوض ويجاهد السقوط ، اما تشجيعا لمن معه من المقاتلين وشدا لأزرهم . واما لمواجهة أعدائه الى آخر رمق واسلام الروح . ومما يزيد ذلك توضيحا قوله :

ينوء وتغشاه ثآبيب من دم
كما لاح فى جيب القميص الكفائف

فهى صورة مكملة للصورة قبلها ، ومفصحة معها عما كانت عليه حالة الشهيد ، تتدافع الدماء من غمه تدافعا حتى اتغشاه كما يغشى السيل ما يلقاه . وأزعم أنه فى تلك الحال كان فى غشية الهول : هول المعركة أو فى غشية الموت الذى يراه رأى العين .

ويريد الشاعر أن يبرز الدماء ، ويوضح ما وصلت اليه من تراكم فوق جسده ، فشبهه بالحلى التى تجعل فى جيب القميص أو غير جيبه ، انها طبقات بعضها فوق بعض ، فهل فى رأى الشاعر أن تلك الدماء من حلى الشهيد كما أن الكفائف من حلى القميص ؟

وفارس الخيل الذى طعن فسقط وتفجرت دماؤه ، دعا درافات المقاتلين من صحبة قبل أن يغادر الحياة ، وفى هؤلاء من أخرج من نسائه ، دعاهن فأصاخ الكل يتلقط الصوت ومكانه ، والذى لاشك فيه أنه كان صوتا ضعيفا خفيضا ، لأنه صوت مكلوم ، ولكن ما أن سمع الصوت وعرف المكان حتى توافد

الأصحاب فى ذرافات ووحدان ، وسوء ما رأوا جعل العيون تذرف بلا توقف :

دعاهن فاستسمعن من أين صوته

وأقبلن شتى والعيون ذوارف

هل تأملت نظم الكلمات ؟ دعاء فسرعة تسمع فاقبال فى حالة هلع من هول المنظر ، وجموع من العيون يسيل دمعها سيلانا .

والذى يبدو لى من وحى الكلمات أن المتعاركين قد اختلط بعضهم ببعض اختلاطا ، ولم يعد فريق يتميز من فريق . وليس من أحد يعرف ا الا من يواجهه ويحاول اتقاء ضربه وطعنه ، وكان فى الميدان الجرىء الذى لا يهاب الأقران . يخوض غمار الصفوف ويتوسط الأعداء كابن عمر ، ذلك لأنه نادى ولم يتعرف على مكانه لأول وهلة . فلو أنه بين جنده وأهله ، أو أنه أمامهم مرئى لهم لما كان منه نداء ، ولما كان منهم تسمع وتنصت .

وظاهر من صورة ابن عمر التى رسمها له الشاعر أنه فى النزع ، وأن صوته الذى أطلقه — وان كان ضعيفا — قد بث فى صحبه وجنده حمية على حمية ، وبعث فيهم روحا مصرة على الصبر والمصابرة فوق ما لديهم وما يمتلكون ، فصبروا حوله . وصبروا دول ابن عم محمد — ﷺ — ومعروف

أنه علي — رضى الله عنه — وصورتهم فى سلاحهم الكثيف كانت شهباء ، قد غلب بياضها على سوادها ، وفيها أشراف القوم وكبارهم ، فهى — اذن — معركة لها خصوصية وتمايز ؛ انهم يقاتلون تحت راية ابن عم محمد ، فازداد فيهم الاصرار والتشبث بالمكان ، وما فاه منهم واحد الى تزحزح ؛ أما وقد رفعت المصاحف ؛ دليل دنو الهزيمة من الجند المعاكس ، فلم يكن بد من الاستجابة ووضع السلاح :

وقد صبرت حول ابن عم محمد
لدى الموت شهباء المناكب شارف
فما برحوا حتى رأى الله صبرهم
وحتى أتيحت بالأكف المصاحف

ورؤية الله صبرهم فى هذا الموقف زيادة توكيد ومبالغة ، لا فى التعبير من الشاعر ، ولكن فى استماتة الجنود وقوة عزمهم وعزيمتهم ، ولأنهم من الرعيل الذى يرى بنور الله ، فكأنهم رأوا بأبصارهم ، أو أنهم رأوا ببصائرهم رضى الله عنهم ، والا لما برحوا ، فما بالنا اذا أضيف الى ذلك رفع المصاحف ؟

والذى يبديه شعر الشاعر أن تلك الوقعة الشرسة قد كانت :

بمرج ترى الرايات فيه كأنه
اذا اجتنحت للطعن طير عواكف

والمرج أرض ذات نبات ومرعى ، فهى فسيحة متسعة للقتال

والصيال ، وهـذا المكان على اتسـاعه ملأته الرايات من الفريقين المتصارعين ، وكثـرة الرايات تـدل على كثـرة الفـرق التى تتمايز برياتها ، علمهـا ، وتاك عـادة تحفـز الى الشجاعة ، وتحث على التحفـظ من أن تجىء الهزيمة من طـرف هـؤلاء أو هـؤلاء .

هـذه الرايات كـانت كثـيرة كثـرة الطـير ، والطـير من عـادته ، وعلى الأخص ، اذا اجتمـع أن يديـم الحـركة وفى سرعة مع جلبـة ، ورايات القـوم متى عمـدوا الى الصدام تحركت معهـم وتمايلت ، وازداد ذلك مع الاستغراق فى الطعن حماية للنفس أو قتـلا للعـدو ، هنـا تـرى صورتها تمامـا صـورة الطـير ، تتحـرك فى كـل اتجـاه ، لكنهـا عاكفة فى مكان كأنهـا شـدت فيـه بقـوى الأمـراس .

* * *

وبعـد ، فـان الشـاعر بعـد افـراغ عواطفه ، وتصويره جـوانب الأحـداث التى أحدقت بالشهيد ومن كـان حـوله ، يدعو ضارعا الى ربـه ، متمنيـا أن يكون الجـزاء سابغا على قتلى قبيله فى صـفين ، والجـزاء الذى تمنـاه أراد أن يفخمـه أكثر وأكثر ، فجعـله مثـل جـزاء رجـال لهـم صـلابة ومهـابة ، لا يملون من مواجهة عـدو ، ولا يقبلون ترك موقـع أو موقف ، فلصبرهم هـذا ولجلدهم تغادرهم صـعاب المواقف واقفين صامدين ، لأنهـم

من الأولى يقاتلون لاحدى الحسنيين ، امـا النصـر واما الشهادة ؛ كى يلحقـوا بالسابقين الأبـرار :

جزى الله قتلانا بصفين خيرا مـا
جـزاه عبـادا غادرتهـا المواقف